تَجْرُبَةُ السَّجْنِ فِي شِعرِ عَلِيّ بنِ الجَهْمِ

" دراسة نصية "

د/ شيماء محمود خميس

دكتوراه في الدراسات الأدبية والنقدية

كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

٢٠٢١م – ١٤٤٢هـ

العدد الرابع والثلاثون

الإصدار الثاني .. أكتوبر

١٤٤٢هـ- ٢٠٢١م

تَجْرُبَةُ السَّجْنِ فِي شِعرِ عَلِيّ بن الجَهْمِ " دراسة نصية "

شيماء محمود خميس

دكتوراه في الدراسات الأدبية والنقدية- كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

البريد الإلكتروني: shaimaa_khamis@yahoo.com

ملخص البحث:

تتناول هذه الدراسة " تجربة السجن في شعر علي بن الجهم "، الشاعر العباسي الذي ذاق مرارة السجن مرتين، وقد مثَّلت أشعاره في الحبس أنموذجين مختلفين. ويعرض البحث ذلك الاختلاف وأسبابه، من خلال دراسة أشعاره في الحبس، والوقوف على معانيها، وإيحاءاتها اللفظية، مبرزًا أهم سماتها الفنية، ومدلولاتها الجمالية. إضافة إلى عرض أهم الدوافع المؤدية لاختلاف أشعاره في حبسه الأول، عن تلك التي عبَّر بها عما بداخله في حبسه الثاني.

ويكشف البحث عن أثر تجربة السَّجن على شاعرنا بعد خروجه من حبسه، ويتتبع تأثيرها على أشعاره، والمراحل المختلفة التي مرَّ بها الشاعر جرَّاء تلك التجربة الأليمة، ويستشهد بنماذج من أشعاره في كل مرحلة، كما يعرض الملامح الفنية المميزة، في محاولة لاستنطاق النص الأدبي، واستكناه أسراره.

الكلمات المفتاحية: علي بن الجهم – ديوان الشاعر– تجربة السجن الأولى – تجربة السجن الثانية – تجربة ما بعد السجن.

The Experience of Imprisonment in the Poetry of Ali ibn al-Jahm "Textual Study"

Shaima Mahmoud Khamis
PhD in Literary and Critical Studies - Faculty of Arts - Alexandria University
Email: shaimaa_khamis@yahoo.com

Absract:

This study is "the prison experience in the poetry of Ali Ibn Al-Jahm ", the Abbasid poet who went to jail twice, for his poems in prison represented two different models, the research explain that difference and its causes through studying his poems in prison, and standing on their meanings, and their verbal overtones, highlighting their most important artistic features and aesthetic implications, In addition to clarifying the most important motives that lead to the difference of his poems in his first imprisonment from those he said in his second imprisonment.

The research discover the impact of the prison experience on the poet after his release from prison, and tracks its impact on his poetry, The various stages that the poet went through as a result of that bad experience, and cites examples of his poems in each stage, and displays the technical features that distinguish them, in an attempt to understand the literary text and reveal its secrets.

Keywords: Ali Ibn Al-Jahm –Al Diwan– first prison experience – second prison experience – after prison experience.

المقدمة:

معلوم أن العصر العباسي قد شهد كثيرًا من الاضطرابات السياسية، واشتدَّت فيه الخصومة بين الفرعين الهاشميين، وانقسم المسلمون إلى فريقين كبيرين: فريق عباسي يستولي على الحكم، وفريق عَلَوِيّ يسعى للوصول إلى الحكم؛ فاشتعلت الفتن الداخلية والثورات، مما نجم عنه اختلاف الطوائف الدينية، وانبثقت من هذه الخلافات حركات سياسية، وشاعت فرق فكرية، وانقسمت جماعات دينية، ثارت على الدولة العباسية، بل وعادت بعضها بعضًا؛ فما كان من الدولة إلا محاولة ردع هذه الفتن، وهؤلاء الخارجين على السلطة، فتبع ذلك كله عقوبة الحبس، وكل أنواع التعذيب.

ومن ثمَّ أصبح السجن "سلاحًا في يد السلطة الحاكمة والمتنفذين، وقوة يكيدون بها للتخلص من أعدائهم، ومناوئيهم"[١] ، و زُجَّ بعلاة القوم، والوزراء في غياهب السجون مع الشطَّار. فهذا (محمد بن عبد الملك الزيات)[٢] وزير (المعتصم) و(الواثق) يُزج به في السجن، وتُصادر أمواله، ويعذَّب إلى أن يموت في التنور زمن (المتوكل)، وكذلك (ابن الخصيب)[٣] وزير (المستعين)،

---

(١) عادل محيى الدين الألوسي – الرأي العام في القرن الثالث الهجري – وزارة الثقافة والإعلام – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد – ١٩٨٧م – ص ١٩٩.

(٢) هو محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة، أبو جعفر، المعروف بابن الزيات: وزير المعتصم والواثق العباسيين، وعالم باللغة والأدب، من بلغاء الكتاب والشعراء... لما مرض الواثق عمل ابن الزيات على تولية ابنه وحرمان المتوكل، فلم يفلح. وولي المتوكل، فنكبه، وعذبه إلى أن مات ببغداد. وكان من العقلاء الدهاة. (الزركلي – الأعلام – دار العلم للملايين –بيروت – ٢٠٠٥م– جـ٦– ص ٢٤٨).

(٣) هو ابن عبد الحميد، الجَرجرائي، الوزير الكبير. استوزره المنتصر، ثم المستعين. وارتفع شأنه، ثم نكب، ونفاه المستعين إلى الغرب في سنة ٢٤٨– (شمس الدين الذهبي – سير أعلام النبلاء– مؤسسة الرسالة – أشرف على تحقيق الكتاب شعيب الأرنؤوط – ١٩٩٦م –١٤١٧هـ – ط١١ – جـ١٢ – ص ٥٥٣).

وغيرهم، حتى غدت " الوزارة سبيلًا يوصل إلى السجن في غالب الأحيان، وندر من نجا من الوزراء ولم يُسجن"[١].

ولم يسلم الشعراء كذلك من أذى السجون، فالدعوة العباسية كانت تقوم على فكرة أحقية الحكم بالحق الموروث؛ فاجتذب الحكام لتحقيق ذلك عددًا من الشعراء الذين كانوا يؤكدون هذا الحق في أشعارهم، ويمدحون الخلفاء العباسيين، ورغم ذلك فقد أُلقي بهم في السجون؛ فذاقوا ويلاته، وخاضوا ظلماته. فقد سَجن (الرشيدُ) (أبا العتاهية) و(أبا نواس)، وسَجن (المتوكل) (إبراهيم بن المدبر) و(علي بن الجهم) أيضاً، وغيرهم من الشعراء.

علي بن الجهم:

هو علي بن الجهم بن بدر[٢]، يُكنى أبا الحسن[٣]، من بني سامة بن لؤي بن غالب، وبنو سامة بطن من قريش العازبة[٤]، وُلِد عام (١١٨) للهجرة[٥]، أما وفاته فكانت عام (٢٤٩) للهجرة[٦]. أما عن نشأته فهو من خُرسان، وقد

(١) صلاح الدين المنجد – بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي – دار الحياة – بيروت – ١٩٧٥م – ص١١٨.

(٢) المرزباني – معجم الشعراء – تحقيق د/ فاروق اسليم– دار صادر – بيروت – ٢٠٠٥م – ص ١٧٨.

الأصفهاني – الأغاني – مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة – ١٩٣٨م – ج١٠– ص ٢٠٣.

الخطيب البغدادي – تاريخ مدينة السلام بغداد– تحقيق وضبط وتعليق د/ بشار عواد معروف – دار الغرب الإسلامي – ط١– ٢٠٠١م – ج١٣– ص ٢٩٠.

(٣) المرزباني – معجم الشعراء – ص١٧٨.

(٤) الأصفهاني – الأغاني – ج١٠– ص ٢٠٥.

(٥) مقدمة ديوان علي بن الجهم – تحقيق خليل مردم بك – المطبعة الهاشمية بدمشق – ١٩٤٩م – ص٥.

(٦) الأتابكي – النجوم الزاهرة – دار الكتب المصرية – القاهرة – ١٩٩٣م – ج٢– ص ٣٣٠.

رحل والده (الجهم) عن موطن أجداده بخراسان. ونشأ علي بن الجهم في أسرة جمعت بين العلم، والأدب، والشرف، والوجاهة، فقد ولى المأمون أباه (الجهم بن بدر) بريد اليمن وطرازها، كما ولاه الثغور الواقعة على حدود الروم، كما ولاه الواثق شرطة بغداد(١).

وكان علي بن الجهم شغوفًا بمجالسة العلماء والأدباء، ويلتقي في قبة بالمسجد الجامع في بغداد بفحول الشعراء في عصره ؛كالبحتري، وأبي تمام، ومروان بن أبي الجنوب، ودعبل الخزاعي، وغيرهم. "فقد كان علي بن الجهم عالمًا بالشعر "(٢).

أما مذهبه الديني فقد كان متدينًا معتزًا بانتمائه لمذهب أهل السنة، وقد أشار إلى ذلك الخطيب البغدادي، بقوله: "وكان متدينًا فاضلًا"(٣)، وكان يتردد على إمام أهل السنة والحديث وقتئذ (أحمد بن حنبل) يستمع له، وينقل عنه، وقد عدَّه (القاضي أبو يعلي) من رجال الطبقة الأولى من طبقات الحنابلة.(٤)

فقد وجد (علي بن الجهم) في خلافة (المتوكل) نصرة لمذهب أهل السنة، فناصره، وأيَّده، وكان أكثر شعره فيه، واتخذه (المتوكل) جليسًا ونديمًا، غير أن هذه العلاقة الوطيدة بين الاثنين أوغرت صدور شعراء (المتوكل) الآخرين، من أمثال (مروان بن أبي حفصة بن أبي الجنوب)، و(البحتري)، و(الحسين بن الضحاك)؛ فسعوا بالوشاية به عند (المتوكل)، وزعموا أنه يجمش(٥) الخدم

(١) انظر شوقي ضيف– تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني – دار المعارف – القاهرة – ط١١ – ص٢٥٥م.

(٢) الصولي – أخبار أبي تمام – تحقيق خليل عساكر– المكتب التجاري – بيروت – د.ت ص٦٣.

(٣) الخطيب البغدادي – تاريخ مدينة السلام بغداد –ج١٣– ص ٢٩٠.

(٤) انظر القاضي أبو يعلي– طبقات الحنابلة– مراجعة محمد الفقي – مطبعة السنة المحمدية – القاهرة – ١٩٥٢م – ج١– ص٢٢٣.

(٥) يجمش الخدم: يلاعبهم ويقرّصهم.

ويغمزهم، وأنه كثير الإزراء على أخلاق الخليفة، ومازالوا به يوغرون صدره عليه حتى أمر (المتوكل) بحبسه، حتى وصل الأمر إلى أنهم أبلغوه عنه أنه قد هجاه فنفاه إلى (خراسان)، وكتب بأن يُصلب إذا وردها يوماً إلى الليل مجرداً[١].

أما عن مكانة علي بن الجهم بين النقاد، فقد قال عنه صاحب الأغاني " كان شاعرًا فصيحًا مطبوعًا"[٢]، وذكره البغدادي بقوله: "جيد الشعر عالم بفنونه"[٣]، وأيَّد ذلك (ابن خلكان)، وقال عنه: "مطبوعًا مقتدرًا بالشعر، عذب الألفاظ"[٤]، وذكره شوقي ضيف، قائلًا: "لم يكن ممن يتكلفون في أشعارهم، ولا ممن يكثرون من ترصيعها بأصناف البديع وأصدافه، ومما لاريب فيه أن ملكاته كانت خصبة، وكان كثيرًا ما يلم بمعانٍ دقيقةٍ، وصورٍ طريفةٍ، مع سهولة الألفاظ، وشفافيتها وصفائها، ومع نصاعتها ورصانتها، ومع جميل الجرس والأداء."[٥]

تجربة السَّجْنِ* في شعر علي بن الجهم:

ذاق علي بن الجهم مرارة السجن مرتين، الأولى سنة (٣٨) للهجرة عندما حبسه الخليفة (المتوكل)، والمرة الثانية سنة (٣٩) للهجرة بعدما أخرجه الخليفة

---

(١) انظر الأصفهاني – الأغاني – ج١٠–ص٢٠٨.

(٢) المصدر السابق – ج١٠– ص ٢٠٥.

(٣) البغدادي – تاريخ بغداد – ج١٣– ص ٢٩٠.

(٤) ابن خلكان – وفيات الأعيان – تحقيق يوسف علي الطويل– دار الكتب العلمية – ١٩٩٨م – ج٣– ص ٣٩.

(٥) شوقي ضيف – تاريخ الأدب العربي – العصر العباسي الثاني – ص ٢٧٠.

* سَجَنَهُ يسجنه سَجْناً: حبسه... يثبت المضروب محله ويحبسه كما ذكره الزبيدي في تاج العروس دار الفكر بيروت – ١٩٩٤م – والمَحْبَسُ يكون سجنا ويكون فعلاً كالحبس كما ذكره ابن منظور في لسان العرب مادة (حبس)– والسِّجن بالكسر المحبس كما ذكره الفيروزآبادي في القاموس المحيط.

(المتوكل) من الحبس، ونفاه إلى (خراسان)، فقام بسجنه (طاهر بن عبد الله)[1] مرة أخرى. وعلى ذلك يكون (علي بن الجهم) فقد حريته قرابة السنتين، وقد نظم خلالهما شعرًا عذبًا بثَّ فيه شكواه وحزنه، ورغم أن تجربة السجن قد تختلف من شاعر إلى آخر،إلا أنها اختلفت عند نفس الشاعر، فأشعار (علي بن الجهم) التي قالها في بداية الحبس، تختلف عن الأشعار التي أنشدها في حبسه الثاني، اختلافًا يتطلب دراسةً وبحثًا لتقصي أسباب ذلك الاختلاف، وحصر ظواهره اللفظية والمعنوية.

أ- **تجربة السجن الأولى في شعر علي بن الجهم:**

أوغر الأعداء قلب الخليفة (المتوكل) على نديمه و حامل أسراره علي بن الجهم، ودفعوا الخليفة للزج به في ظلمات السجن. فكانت أول قصيدة قالها علي بن الجهم في سجنه، وفيها يبث أوجاعه وأحزانه إلى الله –ﷻ–، مستحضرًا عظمة الله –ﷻ– وقدرته. قال:

تَوَكَّلْنَا عَلَى رَبِّ السَّمـــــاءِ وسَلَّمْنا لِأسْبَابِ القَضاءِ[2]

وَوَطَّنّا عَلَى غِيَرِ[3] اللّيالـــي نُفوساً سامَحَتْ بعدَ الإباءِ

وأَفْنِيَةَ[4] المُلوكِ مُحَجَّبـــــاتٌ وبابُ اللهِ مَبْذُولُ الفِنـــاءِ

---

(١) هو (طاهر بن عبد الله بن عمر) ولي القضاء بالكرخ بعد موت أبي عبد الله الصيمري، فلم يزل على القضاء إلى حين وفاته – انظر تاريخ مدينة السلام – الخطيب البغدادي – ج١٠– ص ٤٩١–٤٩٢.

(٢) هي قصيدة تتألف من تسعة وعشرين بيتًا، وذكر الأصفهاني أن هذه القصيدة هي القصيدة الأولى التي نظمها في حبسه، وكتب بها إلى أخيه – انظر الأصفهاني – الأغاني ج١٠– ص٢٠٦.

(٣) غِيَرُ الليالي: أحداثها المغيِّرة.

(٤) الأفنية: جمع فِناء، وهو ساحة أمام البيت.

فما أرجُو سِواهُ لِكَشْفِ ضُرِّي وَلَمْ اَفْزَع إلى غَيْرِ الدَّعاءِ

ولم لا أَشْتكي بَثِّي وحُزْنـــي إلى مَنْ لا يَصَمُّ عَنِ النِّداءِ[1]

ويبدو في القصيدة الأثر القرآني، فيتأثر الشاعر بقوله تعالى ﴿**إِنَّمَآ أَشْكُوْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾[2]، وهو ما ورد على لسان سيدنا (يعقوب) بعد فقده لابنه (يوسف) – عليهما السلام –، مما يُبرز ثقافة الشاعر القرآنية، وقد كشف الشاعر معنى البيت عندما أحال المتلقي إلى تصور سيدنا (يعقوب) – عليه السلام – ومأساته لفقد ابنه، وكأنه وقع في نفس مأساته وما تبعها من فقد بصره لشدة بكائه وحزنه، معبرًا عن شدة ما يلاقيه.

وأما الألفاظ فقد أتت موحية، معبرة عن معاناة الشاعر، مثل:(ضري – أشتكي – بثي– حزني)، إذ لا يقتصر علي بن الجهم على استخدام الألفاظ الموحية فحسب، بل يعمد أيضًا إلى استغلال الإيحاءات من وراء ألفاظه، فأبواب الله مفتوحة لاتوصد، وإن أوصد (المتوكل) بابه أمام الشاعر وظلمه، فلا يوجد له غير الله يشكوه بثه وحزنه، بعدما رفض المتوكل الاستماع إليه، فالله لا يُظلم عنده أحد، فيلجأ الشاعر إلى الله متوكلًا عليه، مؤمنًا بقضائه وقدره، معبرًا عن مشاعره وتجربته مضفيًا عليها مسحة إيمانية نابعة من أعماقه، كما اتسمت ألفاظه بالرقة واللين لمناسبة التجربة الأليمة، وكذلك تكرار همس حرف السين في البيتين الأولين خمس مرات، مما يعبر عن حالته، وما يشعر به من حزن وأسى.

ومن الناحية النفسية يُعد لجوء الشاعر إلى الله محاولة لاستعادة التوازن النفسي للذات، فيحاول علي بن الجهم أن يخفف من وطأة مصيبة السجن على نفسه؛ وذلك من خلال التعبير عن رضاه التام بقضاء الله وقدره، وتوطين

(١) علي بن الجهم – الديوان – ص ٨١–٨٢.

(٢) القرآن الكريم – سورة يوسف – آية (٨٦).

قلبه على الرضا بما آل إليه مصيره، فلا مرد لأمر الله، ولا خلاص له مما يعانيه إلا بتدبير الله، فهو القادر وحده على كشف ضره. فهذا اليقين هو خير معين له يشعره بالراحة النفسية التي يحتاجها، ويكون ذلك عونًا له على التجلد والتماسك من الانهيار النفسي الذي يُصاب به السجناء أول عهدهم بالسجن.

فالأبيات مفعمة بشحنات عاطفية صادقة، تعبر عن صدق التجربة الفنية، وحسن اختيار الألفاظ المؤدية للمعاني الموحية، كما اتسمت الأبيات بعذوبة الألفاظ، فلا غرابة ولا تعقيد، بل شعر رقيق عذب.

ولا يقف علي بن الجهم عند محنة السجن وحسب، بل يتعداها إلى محنٍ أخرى تجمعت عليه، فها هو يكابد مع محنة السجن محنة أخرى تمثلت في تخلي الإخوان عنه، بل وتشفّي الشيعة والنصارى وأهل الاعتزال فيه، فهم في الأساس يمثلون السبب الرئيس، في محنة السجن، التي يعاني الشاعر ويلاتها، يقول:

تَضافَرَتِ الرَّوافِضُ[1] والنّصارى وأَهْلُ الاعْتِزالِ على هِجائِـي

فَبَخْتِيَشُوعُ[2] يَشْهَدُ لابْنِ عَمْرو وعَزّونٌ لهارونَ المُرائِـــي

عليهم لعنـــــةَ اللهِ ابتـــداءً وعَوْداً في الصَّباحِ وفي المساءِ[3]

---

(١) قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ١-٢٦٣ (أراد بالروافض نجاح بن سلمة، والنصارى بختيشوع، وأهل الاعتزال علي بن يحيى النجم)، وقال ابن المعتز في طبقات الشعراء ص١٥١(إنما عنى بالروافض الطاهريين، وبأهل الاعتزال بني داود، وبالنصارى بختيشوع)، وقال صاحب الأغاني ج١٠- ص ٢٠٧ (يعني بأهل الاعتزال علي بن يحيى المنجم).

(٢) (بَخْتِيَشُوعُ بن جبرائيل) هو طبيب مشهور قرَّبه الخلفاء العباسيون، ولاسيما (المتوكل)، وتوفى سنة (٢٥٦) للهجرة – انظر هامش ديوان علي بن الجهم – ص ٨٤.

(٣) علي بن الجهم – الديوان – ص ٨٤.

فقد اتحدت وتعاونت الروافض والنصارى وأهل الاعتزال للنيل منه وإيذائه، وأخذ يُسمي أشخاصًا تعاونوا على إيذائه مفسرًا للمتوكل مكرهم وتدبيرهم.

إن التضافر والتعاون واضح على إيذاء الشاعر، وتدبير المشكلات له؛ بغية إفساد حياته. ولكن السؤال لِمَ التضافر والتعاون على الإيقاع به؟ لقد كانت لعلي بن الجهم رؤية خاصة في الحياة، والفكر، والدين، والمذهب، خاصة وأنه كان صاحب موقف من الأحداث السياسية والدينية، متخذًا من مذهبه السني مفخرًا له، فقد كان يدافع عن كل ما يؤمن به مما دفع به في بعض الأحيان إلى درجة التعصب، والشطط، والابتعاد عن الموضوعية، فأخذ يفخر بسنيته، ويعلي من شأنها، ويهجو المعتزلة، والشيعة، والروافض، وأهل الذمة، وكل من قال بغير ما يؤمن به، فيحط من شأنهم، وشأن معتقداتهم، وبالرغم من انخفاض صوت المعتزلة، والروافض في عهد (المتوكل)، حيث لم تكن لهم تلك الصولة التي كانت زمن (المأمون)، و(المعتصم)، و(الواثق)، إلا أنه ظل قليل منهم يشغلون مناصب عالية في الحكم، واستمر تأثيرهم من وراء الحجاب، وكانوا لا يفتأون يدبرون المكائد لخصومهم من أهل السنة، ومن تلك المكائد ما فعلوه بعلي بن الجهم، فقد ائتمروا عليه، وألقوه في غياهب السجن؛ تنكيلًا به لما قاله فيهم من هجاء.

يقول علي بن الجهم:

أنا المُتَوَكِّليُّ هَوىً ورأيًا وما بالواثِقِيّةِ[1] مِنْ خَفَاءِ[2]

(١) يعني بالواثقية: سيرة الواثق في نصرة الاعتزال، وحمل الناس على القول بخلق القرآن، والتشدد بذلك، وبغض التقليد. فلما أفضت الخلافة إلى المتوكل أمر بالكفِّ عن الجدل، وأمر بالتسليم والتقليد، وإظهار السنة والجماعة. انظر هامش الديوان – ص٨٥.

(٢) علي بن الجهم – الديوان – ص ٨٥.

وما يلبث أن ينهي قصيدته حتى يتوجه إلى مدح المتوكل؛ لعل هذا يذكره بما كان بينهم من محبة وود؛ فيعود لسابق عهده به، ويخرجه من حبسه هذا الذي يلاقي فيه ويلات الظلم والظلمات.

إن هروب علي بن الجهم من ضعفه وذله إلى قوة الله –عز وجل– وعزته، إضافة إلى حنينه إلى ذكريات حياته السابقة، بمثابة حيلة دفاعية تلجأ إليها نفسه لتعيد إليها شيئًا من التوازن والاستقرار، فيُذَكّرُ الشاعرُ الخليفةَ بمناصرته له هوىً ورأيًا، ويستحضر ذكرياته الماضية. إن حنين الشاعر لماضيه هو (محاولة للانعتاق من وطأة الحاضر، وهو غربة عن الواقع، فحين يشعر المرء أن حياته قد قست عليه؛ فإنه يجد متنفسًا بالهروب منها إلى الماضي. إذ يحس المرء بثقل الحياة ومآسيها؛ فيهرب إلى الذكريات الجميلة أو الحزينة، فالذكريات الحاضرة قاسية، فقد مرت به أوقات عاش فيها حياة هانئة سعيدة، فترضى نفسه، ويقر عينًا.)[1]

وهكذا؛ فقد عمد علي بن الجهم في قصيدته السابقة إلى استعطاف الخليفة، ومحاولة كشف المكيدة التي دُبرت للإيقاع به في السجن؛ ليجد بذلك وسيلة للخلاص من عذابه الذي يلاقيه، متكئًا على لغة تتسم بالرقة واللين، معبرًا فيها عن حزنه وشكواه.

وفي قصيدة أخرى يقول علي بن الجهم :

عَفــــا الله عنك ألا حُرمَة	**تَعُوذُ بِعَفــوِكَ أنْ أبْعَـــدا**
لَئنْ جَـلَّ ذَنْبٌ ولم أعْتَمِدْهُ	**فأنت أجَلُّ وأعلى يَـــــدا**
ألـــم تر عبدًا عَدا طَوْرَهُ	**وَمَولىً عَفـا ورشيداً هَدَى**
و مُفْسِــدَ أَمْــرٍ تلافَيْتَــهُ	**فعـــــاد فأصلحَ ما أفْسَدا**

(١) عبد الرزاق الخشروم – الغربة في الشعر الجاهلي – اتحاد الكتاب العرب – ط١– دمشق ١٩٨٢م – ص ٢٤١.

أَقِلْنـــــي[1] أقالَكَ مَنْ لم يَزَلْ يَقِيكَ ويَصرِف عنكَ الرَّدى[2]

لقد سعى علي بن الجهم لاستعطاف الخليفة وعتابه، ولما لم يجد منه إلا التجاهل والصدود، أخذ يكثر من الاستعطاف، وإظهار ضعفه وخضوعه له، ويدعو الخليفة أن يعفو عنه؛ ليصرف الله عنه الردى بعفوه، ويستسمحه في المغفرة والصفح، وتتعدى أبيات القصيدة ثلاثين بيتًا ما بين الاستعطاف، وإظهار الخضوع، والمبالغة في مدح الخليفة، وتعد هذه القصيدة أكثر قصائده تذللًا وانكسارًا. يقول فيها:

قَضى أن تُرى سَيِّد المسلمين وأن لايُرى غَيْرُكَ السَّيِّـدا

وأعلاكَ حتى لو أنَّ السَّماءَ تُنالُ لَجَاوَزْتَهـــا مُصْعِدا

ولم يَرْضَ مِنْ خَلْقِهِ أجمعينَ ألّا تُحَـــــبَّ ولا يُعْبَـــدا

فما بين رَبِّكَ جَلَّ اسْمُـــهُ وَ بيْنكَ إلا نبيُّ الهُـــدى[3]

فينتقل الشاعر من الاسترحام إلى مدح الخليفة (المتوكل)، والثناء عليه. فقد قضى الله أن يكون المتوكل سيد المسلمين، ويفرط الشاعر في مدحه حتى أنه يرفعه إلى مكانة عالية أعلى من المتوقع، فهو عند الله – ﷻ– بعد النبي محمد – ﷺ– مباشرة، وهذه المبالغة في المدح أعلت من شأن الخليفة، حتى أن الشاعر جعله فوق منازل الأنبياء والصحابة، مما جعل منها مبالغة غير محمودة وغُلُوًّا غير مقبول؛ ولعل السبب وراء الإفراط في المبالغة ما يعانيه الشاعر في سجنه، فهو يحاول بكل ما أوتي من معانٍ أن يصل بالخليفة إلى الإفراج عنه، متخذًا من مدحه وسيلة لذلك، ثم يعود لتذكير الخليفة بكرمه

(١) أقال الله عثرته: صفح عنه.

(٢) علي بن الجهم – الديوان – ص ٧٧– ٧٨.

(٣) علي بن الجهم – الديوان – ص ٧٨.

وعفوه، فيوظف أبياته للإشاده به وبصنائعه؛ علَّه يرق له ويطلق سراحه. يقول:

ولا عُدْتُ أَعصيْكَ فيما أَمَرتَ به أو أَرى في الثرى مُلْحدا

وإلا فخالَفتُ رَبَّ السمـــــاءِ وخُنْتُ الصَّديقَ وعِفتُ النّدى[1]

ومن الملاحظ أن الاستعطاف وإظهار الخضوع، والاعتراف بالذنب – حتى وإن لم يرتكبه المسجون– سمة بارزة في شعر السجون. ويعلن علي بن الجهم للخليفة (المتوكل) توبته عما فعل، وندمه على ما اقترف، كما يقر بضعفه وقلة حيلته. غير أنه لا ذنب عليه للخليفة ليطلب مغفرته إياه، بل على النقيض، فحبسه كان لوشاية الأعداء به، وظلم الخليفة له. وهو يقر بذنب لم يقترفه في محاولة منه لإرضاء الخليفة.

لقد سرى الاسترحام في كل ألفاظ الأبيات السابقة، ويعبر عن ذلك تكرار كلمة (العفو) أكثر من مرة وربطها بعفو الله – ﷻ–.

وفي قصيدة أخرى قالها في حبسه، يقول:

خَلِيلَيَّ ما للحبِّ يَزْدادُ جِدَّةً على الدَّهرِ والأيامُ يَبْلى جَديدُها

وما لعِهُودِ الغانياتِ ذميمَةً وليلى حرامٌ أن تُذَمَّ عُهودُهـــا

أَلَمَّتْ وَجُنْحُ الليلِ مُرْخٍ سُدُولَهُ وللسجْنِ أحراسٌ قليلٌ هُجودُها[2]

والذكريات تتلاحق في خيال علي بن الجهم في فترات سجنه، معينة له ليتعايش مع جدران السجن المعتمة، فيتذكر محبوبته، ويتذكر أيامه معها؛ فيحن لحياته السابقة، وتتفجر مشاعر الفراق وآلامه.

---

(١) المصدر السابق – ص ٧٩.

(٢) علي بن الجهم – الديوان – ص ٥٠.

وقد جاءت (ليلى) إلى الشاعر ليلًا وزارته في سجنه كما يذكر، ولكنها لم تأت إليه حقيقة، فقد اعتمد الشاعر ذكر (طيف الخيال)[١]، وهو موروث شعري سابق، كان يحتل جزءًا من القصيدة، غير أن علي بن الجهم جعل من زيارة طيف محبوبته له موضوعًا منفردًا لكامل القصيدة، ونقل زيارة طيف محبوبته من الصحراء- كسابقيه – إلى السجن، إذ تخطت محبوبته عقبات الوصول إلى مكان محبسه، واستطاعت أن تتجاوز حراس السجن، فيتعجب الشاعر من وصولها إليه رغم الصعوبات، فتجيبه تلبيةً لنداء الشوق الذي لم تعد تطيقه.

ويذكر علي بن الجهم (للسجن أحراس) في إشارة عاجلة، غير أن هذا (السجَّان) يمثل لديه إنسانًا جاء من خارج الدنيا التي يحياها البشر، ففي موضع آخر يشير إليه بقوله :

خَرَجنا من الدنيا ونحنُ من أهلها فلسنا مِنِ الأحياءِ فيها ولا الموتى

إذا جاءنـــا السَّجَّانُ يوماً لحاجةٍ عجبنا وقُلنا جاء هذا من الدُّنيا[٢]

وكأن السجَّان من كثرة ما رآه من ظلم وتعذيب للمسجونين صار قلبه غليظًا، وطباعه خشنة، وكأنه لم يأت من هذه الدنيا التي نعيشها، بل جاء من عالم آخر يخلو من القيم الإنسانية الرحيمة، وربما كانت صورة السجَّان أقبح أثرًا إلى نفس السجين وخاصة الشعراء منهم، فمجرد حضور صورته كفيلة أن تفسد على الشاعر وَحْيَهُ وإلهامه.

---

(١) طيف الخيال يعد أحد التقاليد الفنية التي سار عليها الشعراء في افتتاح قصائدهم. قال عنه مسكويه: (الطيف هو اسم لصورة المحبوب إذا حصَّلته النفس في قوتها المتخيلة، حتى تكون تلك الصورة نصب عينه، وتجاه وهمه، كلما خلا بنفسه.) أبو حيان التوحيدي، وابن مسكويه – الهوامل والشوامل – نشره أحمد أمين و السيد أحمد صقر – الهيئة المصرية العامة للكتاب –٢٠٠٩م – ص ٣٠٦، وانظر جابر عصفور – الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي – دار المعارف – القاهرة – ص ٩٤.

(٢) علي بن الجهم – الديوان – ص ٩٦.

ويصف الشاعر نفسه في سجنه بمن يحيا حياة الأحياء، ولكن في قبره، فلا هو بالحي، ولا هو بالميت، فإن كان من الأحياء فهو لا يحيا حياة أهلها، وكأنه من الأموات ومازال في الدنيا، وهو وصف دقيق للحالة السيئة التي وصل إليها علي بن الجهم في محبسه، وهو وصف يخلو من المغالاة أو التهويل، إنما هو تسجيل خاطف لرجع صدى التجربة القاسية التي يعانيها الشاعر.

أما الحالة النفسية للشاعر فتعبّر عنها تلك المفارقة بين الموت والحياة، واليأس والأمل، فقد عانى الشاعر كثيرًا من الصراع الدائم بين اليأس والأمل، (فالأماكن المغلقة تخلق لدى الإنسان صراعًا داخليًا بين الرغبات وبين الواقع، وفي الوقت نفسه لا يخلو الأمر من مشاعر الضيق والخوف، ولا سيما إذا كان المكان المغلق هو السجن.)[١]

وبالعودة إلى دالية علي بن الجهم السابقة، نشهد حواره مع طيف المحبوبة قائلًا:

فقلتُ لها أنـــىَّ تَجَشَّمْتِ خُطّـة ... يُحَرِّجُ أَنْفاسَ الرِّياحِ ورُودُهـــا

فقالتْ أَطَعْنَا الشـــوقَ بعدَ تَجَلّـدِ ... وَشَرُّ قُلوبِ العاشقينَ جَلِيدُهـــــا

وأعلنتِ الشَّكوى وجالتْ دموعُها ... على الخدِّ لمَّا التفَّ بالجيدِ جِيدُها

فقلتُ لها والدمعُ شتى طريقُـــهُ ... ونارُ الهوى بالشوقِ يُذكى وقودُها[٢]

فيقيم الشاعر هنا موقفًا حواريًا بينه وبين محبوبته، التي زاره طيف خيالها في محبسه، فيصفها بالحزن وضيق الصدر لمعاناتها فراقه وبعدها عنه، فيراها

(١) حفيظة أحمد – بنية الخطاب في الرواية النسائية الفلسطينية – دراسة نقدية – منشورات الرعاة للدراسات والنشر–فلسطين – ٢٠٠٧م – ص١٢١.

(٢) علي بن الجهم – الديوان – ص ٥٠–٥١.

قد نفد صبرها ولا تتحمل التجلد، فيواسيها الشاعر بلوعة وشجن، ويطلب منها الصبر والتجلد، أو لعلها تكون نفسه التي يحاورها وتحاوره، واصفًا ضيقه وألمه وما يكابده في ظلمات السجن، وقلة صبره هو، فيواسي نفسه ويطلب منها الصبر، ويجعل من استدعاء طيف محبوبته (ليلى) إلى السجن محاولة لكسر قيود حبسه، وكسر حواجز السجن.

والملاحظ أن علي بن الجهم يمزج في قصيدته بين الشكوى والاستعطاف؛ أما الشكوى فهي حاضرة في (الدمع – الشوق – القيود)، وما يعانيه من عذاب في بُعده عن محبوبته بسبب سجنه، وأما الاستعطاف فيضمنه في معاني الأبيات واصفًا ما آلت إليه حاله في سجنه.

وقد أجاد شاعرنا توظيف ألفاظه، فلفظة (شر) في قوله على لسان ليلى محبوبته (شر قلوب العاشقين جليدها)، واستخدامها في هذا السياق يبتعد عن المعنى المعجمي الحقيقي، الذى تحمله من معاني الضرر والإساءة، ليأخذ اتجاهًا ضديًا يشير إلى معنى الخير، فأكثر العاشقين تجلدًا هم أصحاب القلوب الرحيمة صادقة الحب، فيقلب الشاعر الأمور جاعلًا من الشر خيرًا، ومن القبح حسنًا.

ويكشف الشاعر عن إحساسه الأليم بالتناقض بين الألم الذي يلاقيه في سجنه، وما كانت عليه حياته السابقة الهنيئة مع محبوبته، وكذلك أتى الفعل (يبلى) معبرًا عن ذلك التناقض الذي غير حياة الشاعر، وكذلك الفعل (يحرج) الذي يؤكد ضيقه النفسي، فالورود لا تحرج أنفاس الرياح؛ بل أنفاس الشاعر نفسه، فقد جعل من عناصر الطبيعة وحدة شعورية تنقل أحاسيسه، وما يعانيه من اضطراب وألم وقلق. وكذلك تكرار المصدر والصيغة من الفعل (تجلد) في موقفين متضادين مما يمد تجربة الشاعر بالإيحاء وقوة التأثير.

أما الحالة النفسية للشاعر فتتجلى في غياب فكرة رفض الشاعر للظلم الواقع عليه من قِبل الخليفة (المتوكل)، والذي يمثل أساس الموضوع الذي يختفي وراء قناع الشكوى، فالشاعر يرفض واقعه المر الذي فرضه عليه ظلم

الخليفة له، وزجّه في السجن بلا سبب حقيقي، فيعمد الشاعر إلى نشر جو من الغموض على قصيدته، التي ينشدها في سجنه، شاكيًا فيها حاله من غياب محبوبته، ومعاناته من الدهر، مصرحًا من خلال أبياته عن عواطفه وأحاسيسه، فيُغيّب الأساس، ويعوض عنه بموضوع الشكوى من الدهر وغياب المحبوبة. ولعل الشاعر قد أبدل الموضوع الرئيس بموضوع آخر أظهره في أبياته خوفًا من ظلم السلطة. ويقول:

فلا تَجْزعي إمَّا رأيتِ قَيودَهُ فإن خلاخيلَ الرجالِ قَيودُها(١)

فيدعو الشاعر محبوبته أن تتصبر، وألا تجزع من رؤية القيود في ساقيه، جاعلًا من قيوده زينة للرجل الشجاع يتزين بها، مثلها مثل تلك الخلاخيل التي تتحلى بها المرأة في ساقيها، ولعل الشاعر يكابر ويغالط نفسه فيما يقول، حتى وإن حاول بذلك التخفيف عن نفسه، فشتان ما بين القيود والخلاخيل.

كما تتجلى محاولة الشاعر في التخفيف من ألمه، وتهوين الأمر على نفسه، في قوله (فلا تجزعي إما رأيت قيوده) فاستخدام أسلوب الالتفات عندما يتحدث عن نفسه مستخدمًا ضمير الغائب، مبعدًا حدة نسبة القيود إلى نفسه، مخففًا بذلك من وطأة الحزن على محبوبته، وعلى نفسه أيضًا. يقول:

ولا تُنكري حالَ الرَّخاءِ وَفَوْتَهُ فإنَّ أميرَ المؤمنينَ يُعِيدُها(٢)

فيُنهي علي بن الجهم قصيدته البالغة عشرة أبيات بهذا البيت، متمنيًا أن يعيد الخليفة (المتوكل) حياته لسابق عهدها، فيفرج عنه وتستقر له الحياة. ففي الفعل (يعيدها) توكيل الأمر برمته إلى الخليفة، إضافة إلى ما يحمله الفعل من رجاء واستعطاف.

والمتأمل في أبيات القصيدة، يجد أن آخر بيت في القصيدة هو مغزى القصيدة الذي مهد له من أول بيت، وهو دعوة الخليفة (المتوكل) للعفو

---

(١) علي بن الجهم – الديوان – ص ٥١.

(٢) علي بن الجهم – الديوان – ص٥١.

والمغفرة والإفراج عنه، ولكنه جاء في إشارة بسيطة ولمحة وجيزة غير مباشرة، تختلف عن أسلوب الاستعطاف الذي اتبعه في القصيدتين السابقتين الذكر، وكأنه بدأ يشعر بعدم جدوى استعطاف الخليفة، والذي قد تغير عليه حقًا، ولم يعد يهتم لأمره، فعدل علي بن الجهم عن طريقته السابقة في الاسترحام والإفراط في المدح، إلى الإشارات البسيطة والتلميحات، بل واكتفى بالتلميح في سياق الحوار القائم بينه وبين محبوبته في السجن.

وقد تميزت القصيدة بأسلوب الحوار، والتعامل مع التراث الشعري القديم بشكل من الجدة، وذلك بتحويل طيف الخيال من الصحراء مكانه المعهود إلى السجن وتعديه حراسه، بل وتوسعت صورة الطيف حتى أصبحت صورة القصيدة بأكملها، وجاءت ألفاظه وأساليبه موحية معبرة عن أحاسيسه وما يلاقيه، والكشف عن محاولاته مع نفسه لتتحمل عبء ما يلاقيه في سجنه، ولتتصبر، وتتجلد.

تتميز نفسية المسجون بغلبة أحلام اليقظة، فترد إلى ذهنه ما يتمناه، فيتخيله ويعيش في عالمه المتخيل، وينصرف تفكيره إلى المستقبل الذي يرسم له الصورة التي يتمناها، فينكر الحقيقة الماثلة أمامه. فعلي بن الجهم أتي بالمحبوبة إلى سجنه، ووعدها بأن الخليفة سيعيد حياته الماضية كما كانت كسابق عهده؛ ليعيش في حرية ونعيم، مبتعدًا بذلك عن الواقع الحقيقي الذي يحياه، وكذلك يتخذ من أحلامه التي يراها في منامه ملاذًا ومهربًا من واقعه الأليم، يقول:

ونَفرَحُ بالرُّؤْيـــا فَجُلُّ حَدِيثنـــا إذَا نحنُ أَصبَحنا الْحدِيثُ عن الرُّؤيا(١)

ويبتعد الشاعر عن وحدته التي ضاق بها ذرعًا، فيصبح الحلم الذي يراه في منامه مهربًا من واقعه، ولكن حتى هذه الأحلام قد صارت عزيزة، يبعد بها

(١) علي بن الجهم – الديوان – ص ٩٦.

المسجون عن واقعه الأليم الذي يحياه؛ لتصبح موطن اهتمامه وحديثه مع غيره من المسجونين.

لقد عمد علي بن الجهم في بداية تجربة سجنه إلى نظم أشعار يعاتب فيها الخليفة المتوكل لما فعله فيه، ويستعطفه لفك أسره؛ أملًا أن تعود حياتهما معًا كما كانت، ويبث شكواه وحزنه لما يلاقيه في سجنه معبرًا عن ذلك كله بلغة تتسم بالرقة واللين، كما قلت الصور الفنية في أشعار تجربة سجنه الأولى فقد كان هم الشاعر بث معاناته، والتعبير عن أحزانه تعبيرًا صادقًا، فمثَّل شعره تجربة شعرية صادقة كما اتضح من النماذج السابقة.

ب-<u>تجربة السجن الثانية في شعر علي بن الجهم:</u>

ما تلبث أن تتبدل تجربته السابقة، شيئًا فشيئًا، حتى ينحو بشعره منحًا آخر، يعكس فيه الواقع ويقلبه، فيجعل من سجنه بيت كرامة، ومكاناً يحفل به – فهو موضع الرجال–، جاعلًا من تجربة سجنه الأليمة تجربة استعلاء وسمو بالنفس عن كل نقص، مبرزًا قوة نفسه، مظهرًا رباطة جأشه، وعدم اكتراثه بدخول السجن. يقول في مطلع قصيدته الدالية[1] :

قالتْ حُبِسْتَ فقلتُ ليس بضائرٍ حَبْسي وأيُّ مُهَنّدٍ لا يُغْمَدُ

أو ما رَأَيتِ اللّيْثَ يَأْلَفُ غِيلَهُ[2] كِبْراً وَأَوْباشُ السِّباعِ تَرَدَّدُ

والشمسُ لولا أنها محجوبة عن ناظِرَيْكِ لما أَضاءَ الفَرْقَدُ

---

(١) قال أبو الفرج الأصفهاني عن هذه القصيدة: (وأحسن شعر قاله في الحبس قصيدته التي أولها قالت حبست) الأغاني ج١٠– ص ٢١٣، وقال المسعودي: (وله في الحبس شعر معروف لم يسبقه إلى معناه أحد وهو قوله: قالت حبست) مروج الذهب – ج٢– ص٢٧٤.

(٢) الغيل: الشجر الكثير الملتف، وهو موضع الأسد.

والبدرُ يُدْرِكُهُ السِّرار[١] فتنجلي أيَّامُهُ وكـأنّه مُتَجَـــــــدِّدُ

والغيثُ يَحْصُرُهُ الغَمَامُ فما يُرى إلّا وَرِيّقُهُ[٢] يُراحُ[٣] وَيَرْعُـــدُ

والنارُ في أَحجـــارِها مخبوءَةٌ لا تُصْطَلى إن لم تُثِرها الأَزْنُدُ[٤]

يورد علي بن الجهم في بداية قصيدته طائفة من الأدلة العقلية، فيشبه وضعه في السجن بالسيف يُغمد حينًا ويُسل أحيانًا، وبالليث الرابض في عرينه؛ استعلاءً على أوباش السباع الهائمة في البراري والوديان، وبالشمس التي لا يضيرها الحجب وراء السحب، وبالبدر المختفي آخر أيامه، وبالغيث المحصور داخل الغمام، وبالنار المختفية في الحجر. وجميعها تشبيهات ضمنية، تُفهم من سياق الأبيات في وحدة نفسية عامة سيطرت على الجو العام.

فالشاعر يصور سجنه بهذه الصور المحسوسة، التي توضح تأثره النفسي بمحنته، ومقابلة ذلك بشعور الاستعلاء وعزة النفس، فإن اتخاذ الليث مكانًا تلفه الأشجار، والبدر في علوه في السماء، والغيث الذي ينزل محملًا بالخير، والنار وإنارتها.

ومن الناحية النفسية، فتنعكس نفسية الشاعر على أبياته السابقة، فيظهر صوت (الأنا) واضحًا، فهو الشمس، والبدر، والمطر. لقد عانى علي بن الجهم من حبسين؛ الأول مادي متمثل في السجن الحقيقي الذي زُج به فيه، والثاني معنوي متمثل بانكفاء النفس على أحلامها وتطلعاتها، وعدم قدرتها على تحقيق ما تتمنى.

---

(١) السرار (بالفتح والكسر): آخر أيام الشهر.

(٢) الرَيّق من كل شيء: أوله، ومن المطر الشيء اليسير.

(٣) رَاحَ اليومِ يَرَاحُ رِيحًا: كان شديد الريح.

(٤) علي بن الجهم – الديوان – ص ٤١-٤٢.

فكل تلك الصور لها انعكاساتها النفسية لدى الشاعر، فالشاعر ذو شأنٍ عظيم؛ مما دفع الحاقدين له والمتآمرين عليه يتربصون به، ويتخذون من جمعهم قوة ضده، ولكن هيهات فالشمس ستبقى دافئة، والبدر سيعلو في السماء، والنار متوقدة دائمًا، فأصبحت بذلك محنته لا تزيده إلا إصرارًا وشموخًا واعتزازًا.

فضلًا عن أن الشاعر يمزج بين الفعلين الماضي والمضارع، فيجعل الماضي (حبست)، ثم تتوالى الأفعال المضارعة (يغمد – يألف – تنجلي – يدركه – يحصره – يراح – يرعد) في تتابع مشهدي لكل تلك الصور الحسية، مستحضرًا تداعياتها المثيرة لبواعث النفس، التي تؤثر من خلالها البقاء في ثبات وإباء وعزة نفس. ويستمر علي بن الجهم قائلًا في قصيدته:

وَلِكُلِّ حــالٍ مُعْقِبٌ[1] ولَرُبَّما أَجْلى لكَ المكروهُ عَمَّا يُحْمَدُ

ولايُؤيسَنّكَ مِن تَفَرُّجِ كُربَةٍ خَطْبٌ رَماكَ به الزَّمانُ الأَنْكَدُ

كَمْ مِنْ عَلِيلٍ قَدْ تَخَطّاه الرَّدى فنجا ومات طَبِيبُهُ والعُوَّدُ[2]

تتسم الأبيات السابقة بطابع الحكمة، ولعل التجربة العصيبة التي عاشها الشاعر أوردت الحكمة في شعره، فربما انقلب المكروه الذي تخشاه خيراً يُحمد، كما يدعو إلى عدم اليأس، فلا تيأس من خطب الزمان، فالأمور قد تتغير وتتحول إلى الأفضل، فكل الأمور بيد الله، وتبدل الأحوال قدر لا فكاك منه، فلا مجال لليأس.

وتظهر المفارقة عندما يصور الشاعر حاله كحال المريض الذي تخطاه الموت، ومات طبيبه، وما يحمله المعنى من مفاجأة، فالتضاد المعنوي بين

---

(١) أعقب فلان فلانًا فهو مُعقِب: خَلَفه وجاء بعده.

(٢) علي بن الجهم – الديوان – ص ٤٤.

العليل والطبيب، والردى والموت، وما يقابلهما من تخطٍ ونجاة، تكمن فيهما المفارقة، وما تؤول به إلى انعكاس لما في نفس الشاعر، ممنيًا نفسه بالصبر.

ومن الجدير بالملاحظة والذكر؛ أن علي بن الجهم كان من أكثر شعراء عصره تجلدًا وصبرًا على تحمل أهوال سجنه، ومكابدة مشاقه وويلاته، فنفسه قوية تتحمل، وتصبر، ولا تعترف بالجزع، فنجده في غير موضع يتحدث عن التحمل والصبر، والدعوة إلى التجلد، مثل قوله:

واصبر فإن الصبرِ يُعقِبُ راحة في اليوم يأتي أو يَجيءُ بها الغَدُ(١)

إن الحديث عن الصبر بمثابة رد فعل يعبر به الشاعر عن نفسيته المتعبة، فالصبر عامة يحيط الإنسان بهالة من الراحة النفسية؛ جرّاء ما يصل إليه من قناعة، فوراء هذه الدعوة إلى التصبر معاناة أليمة. ويقول عن صبره أيضًا:

سأَصبرُ حتى يعلمَ الصَّبرُ أَنّني أَخوهُ الذي تُطــوى عليه جَوانِحــــه

وأَقْبَلُ مَيسورَ الزَّمانِ وإنّمــا أرى العَيشَ مقصورًا على مَن يُسامحه(٢)

إن التجارب العصيبة التي عاشها الشاعر فجَّرت على لسانه ينابيع الحكمة، وانقلبت الحكمة لديه إلى نوع من أنواع تعزية النفس، فهو لا يملك أمام القدر إلا الصبر عليه، وإن لم تكن الحكمة تمثل عند الشاعر غرضًا في حد ذاته، إنما تأتي بين الأغراض الأخرى، وأغلبها كان نتيجة للإيمان بالله، والاستسلام لقضائه.

قد عانى علي بن الجهم في سجنه من الضغط النفسي الذي لاقاه مما جعله ينطق بالحكمة والبيان، فقد أتاح السجن للشاعر أن يطيل التأمل؛ فينظر إلى دخائل الأمور، فجاءت حكمه طبيعية غير متكلفة، نابعة من نفس ذاقت ويلات المعاناة، حتى أُلهمت وتأملت.

---

(١) المصدر السابق – ص٤٤.

(٢) علي بن الجهم – الديوان – ص ٦٥.

وتتجلى حدة الصراع النفسي عند الشاعر لما يعانيه من ضغوطات نفسية يلاقيها في سجنه، فيتخذ من أشعاره وسيلة للتخلص من تلك الضغوطات، فقد كان علي بن الجهم متمكنًا مطبوعًا، يجمع في ألفاظه ما بين الرقة والقوة تماشيًا مع الموقف الذي يمر به.

يصبر الشاعر على محنته، ويحاول بث الأمل إلى نفسه، ثم تعاوده عزة النفس ثانية؛ فيثني على الحبس إذ كان دخوله لغير ذنب، فيقول:

والحبسُ ما لم تَغْشَهُ لِدَنِيَّةٍ شَنْعاءَ نِعْمَ المَنْزِلُ المُتَوَرَّدُ(١)

بيتٌ يُجَدِّدُ للكريمِ كَرامةً وَيُزارُ فيه ولايزورُ وَ يُحْفَدُ(٢)(٣)

فالحبس بيت كرامة، فهو فيه يُزار كالشخصيات الكبيرة، ولا يزور أحدًا لعظم مكانته، وهذا بالطبع ينتفي مع الواقع، بل ويتناقض مع الألم الذي يعتصره.

ولعل الدوافع النفسية التي أدت به إلى هذا الادعاء الزائف ترجع لكونها ردود فعل تعويضية، عما أصاب الشاعر السجين من هوان وذل وخيبة أمل، فأخذ ينسج التبريرات؛ ليخرج من حقيقة ما يشعر به، ويحاول أن يعيد لنفسه قيمتها المسلوبة، فيقابل الوقائع الصارخة بالأمل والادعاء الواهم، وهو متسلٍ بالصبر.

يجعل علي بن الجهم من رفعته قوة في مواجهة الذل، مدافعًا عن ذاته الداخلية في مواجهة العالم الخارجي الذي يحياه، فارًا من هذه النكبة التي يتعرض لها، محاولًا أن يُرضي نفسه حتى تتسم بشيء من الاستقرار. وكأنه بذلك كله يوجه رسالة إلى أعدائه تنكر حقيقة واقعة، وتجعل ممن سجنه من

---

(١) المتورد: الذي يورد ويزار مثل المورود.

(٢) يُحفَدُ: يُخدم.

(٣) علي بن الجهم – الديوان – ص ٤٥.

الذين دبروا له المكائد كي يوقعوه فيه بمثابة نعمة يتقلب فيها، فإذا به يأخذ موقفًا عكسيًا من السجن للرد على خصومه. يواصل داليته قائلاً:

فَلَئِنْ بَقِيتُ على الزَّمانِ وكان لي يومًا مِنَ المَلِكِ الخليفةِ مَقْعَـدُ

واحْتَّج خَصْمي واحْتَجَجْتُ بِحُجَّتي لَفَلَجْتُ في حُجَجِي وخابَ الأَبْعَدُ[1]

يعود الشاعر مرة أخرى لحججه العقلية، وبراهينه المنطقية، لعقد مواجهة بينه وبين كل من كادوا له، ويحتج كل طرف بحجته على صدقه، فيدحض الشاعر كل حججهم الواهية الضعيفة، وينتصر عليهم مظهرًا كل مكائدهم وشرورهم.

وإن تكرار علي بن الجهم للفظة (الحجة) أربع مرات في بيت واحد (احتج – احتججت – حجتي – حججي) يبرز مقدار الصراع القائم بينه وبين أعدائه، ويؤكد عزمه على هزيمتهم والانتصار عليهم، فله هو النصر، وهم ليس لهم سوى الخيبة.

أما من الناحية النفسية فقد حاول علي بن الجهم – كما يدل ظاهر الأبيات – أن يبدو هادئ الروح، ساكن النفس، وهو في سجنه، وأن يقنع نفسه براحته ورضاه عن هذا المكان، ولكن سرعان ما يظهر نقيض ذلك، فرغم كل هذه القوة التي يحاول أن يظهرها في شعره تظهر حقيقة الأمر في كلماته، فقوله (إن كان لي يومًا) لها دلالتها النفسية التي يكنها الشاعر ويعمد إلى إخفائها، وعدم البوح بها، لها دلالة على كم الحسرة التي تعانيها نفسه لما آلت إليه حاله في السجن، ثم يُنهي قصيدته السابقة بسؤاله متعجبًا:

فَبِأيّ ذَنْبٍ أَصبَحَتْ أَعراضُنا نَهْبًا يُشِيدُ[2] بها اللّئيمُ الأَوْغَدُ[3]

---

(١) علي بن الجهم – الديوان – ص ٤٧.

(٢) من معاني الإشادة إفشاء المكروه والقبيح.

(٣) علي بن الجهم – الديوان – ص ٤٧.

مُنهيًا قصيدته ومُبدئًا حالة من الحيرة في نفس المتلقي، علَّه يجد إجابة تريح هذا الصراع الداخلي الذي يعانيه، إذ كيف أصبح عرضه مهانًا تتنازعه ألسنة اللئام دون أي اعتبار؟!

ولعله يترك سؤاله مفتوحًا، تمتد فيه مسافات التأويل إلى ما لانهاية، فربما أتت الإجابة على لسان من ضره؛ فتحيا الضمائر التي قد ماتت؛ ويفك حبسه وتعود حياته حرة طليقة كما كان عهده السابق.

وكلها دلالات متناهية، لا يمكن الإفصاح عنها إلا بإيراد هذا السؤال في نهاية القصيدة. لقد عبَّر الشاعر عن تجربة السجن في الأبيات السابقة من خلال قلب الأمور، فجعل من محنته منحة يتنعم فيها، مظهرًا لأعدائه عكس ما يرجون، فجاءت قصيدته وكأنها رسالة لأعدائه يبين لهم عدم اكتراثه بمكائدهم، مظهرًا لهم قوته وعزة نفسه وكبريائه، متكئًا على ألفاظٍ قويةٍ توحي بقوته. واتسمت القصيدة بالوحدة العضوية، وكأنها دفعات شعورية متسلسلة من مطلع القصيدة إلى خاتمتها.

ومن مظاهر الاغتراب النفسي[1] عند علي بن الجهم شعوره بالصراع المتواصل بين واقع سجنه المظلم، وأمله المرجو في فك أسره. إنه صراع بين الوجود والفناء، بين الواقع المحدود والأمل الواسع. فالأبيات تعبر عن حالة من الصراع الداخلي؛ (الناتج عن انتقاله بشكل مفاجئ من الحياة الهادئة المستقرة إلى حياة أخرى مليئة بالتوتر والقلق؛ فيؤدي ذلك التغيير إلى مقاومة شديدة من قِبل المرء، فإما أن ينجح في التغلب على المشكلة ويسلك طريقًا منتصرًا في

(١) الاغتراب النفسي هو الحصيلة النهائية للاغتراب في أي شكل من أشكاله، وإنه انتقال الصراع بين الذات والموضوع الآخر من الحياة الخارجية إلى الحياة الداخلية في النفس الإنسانية– انظر سماح خالد زهران– دراسات في علم النفس الاجتماعي التربوي على الأطفال والراشدين– دار الفكر العربي– القاهرة– ط١– ٢٠٠٢م.

الحياة، وإما يفشل ويركن إلى الاستسلام شاعرًا بالانهزام، فاقدًا كل ثقته بنفسه.)[١]

وقد ورد في أخبار علي بن الجهم: " بعدما نفى المتوكلُ عليَّ بن الجهم إلى خراسان، وكتب بأن يُصلب إذا وردها يومًا إلى الليل، فلمَّا وصل إلى الشاذياخ[٢] حبسه (طاهر بن عبد الله بن طاهر) بها، ثم أُخرج فصُلب يومًا إلى الليل مجردًا، ثم أُنزل، فقال في ذلك"[٣]:

لَمْ يَنْصِبُوا بِالشَّاذِياخ صَبِيحَة الإِ ... ثنينِ مَغْمُورًا ولا مَجْهُـــولا

نَصَبُوا بِحَمْدِ اللهِ مِلْءَ عُيُونِهِمْ ... شَرَفًا وَ مِلْءَ صُدُورِهم تَبْجِيلا

ما ازْداد إلّا رِفْعَةً بِنُكُولِـــهِ[٤] ... وازْدَادت الأعداءُ عنه نُكُولا[٥]

فتزداد نبرة العزة والاعتداد بالنفس عند علي بن الجهم، كلما ازدادت محنته واشتدت، فلم تنته تجربته بالحبس وحسب، بل إذ به يُجرد من ملابسه، ويُصلب ليلة كاملة؛ فتنعكس الأمور لديه، فلا يشكو ولا يجزع ولا يتنازل عن كبريائه، بل يعلو بنفسه عن كل دنية، فسجَّانوه لم يصلبوا شخصًا مغمورًا أو مجهولًا؛ بل صلبوا شرفًا وتبجيلًا، فإن أراد الأعداء التنكيل به بصلبه مجردًا من ملابسه، فما كان في ذلك إلا أن زاده رفعة زادت أعداءه فرارًا وإحجامًا عنه.

---

(١) انظر الدكتور أبو مدين الشافعي– الصراع النفسي– مطبعة لجنة البيان العربي– القاهرة – ١٩٥٠م –١٣٧٠هـ– ص٢٧.

(٢) الشاذياخ: من ضواحي نيسابورأم بلاد خراسان – انظر هامش ديوان علي بن الجهم – ص ١٧٢.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني – الأغاني – ج١٠– ص ٢٠٨.

(٤) يريد بنكوله الأولى التنكيل به، وبالثانية الفرار عنه والإحجام.

(٥) علي بن الجهم – الديوان – ص ١٧١.

ويظهر التوافق بين الصَّلب الذي يكون في مكان عالٍ، وعلو منزلته ورفعته بسبب نكال الأعداء به، وقد عبَّر بأسلوب القصر (ما ازداد إلا رفعة)؛ ليدل على قوته وصلابته أمام الأعداء، فهذا الاستعلاء ردة فعل منه جامحة على ظلم الظالمين له، يقول:

هل كان إلا اللّيْثِ فارق غِيلَهُ فرأَيتَهُ في مَحْمَلٍ مَحْمُـــولا

ما عابَهُ أنْ بُزَّ عنه لِبِاسُـــهُ فالسَّيفُ أَهْوَلُ ما يُرى مسلولا

إن يُبْتَذَلْ فالبدرُ لا يُزْرى به أَنْ كان ليلة تِمِّهِ مَبـــــذولا[1]

ولقد شبّه الشاعر نفسه يوم صلبه مجردًا بالليث الذي ترك عرينه، فحمل في محمل خوفًا من بطشه وقوته، وبالسيف الذي سُلَّ من غمده فكان أهول منظرًا، وبالبدر الذي تم واكتمل مما زاده بهاءً، وكلها تشبيهات بليغة، كثيرًا ما شبَّه بها نفسه في محنته ردًا على أعدائه.

واختتم الشاعر أبياته بصيغة اسم المفعول (محمول – مسلول – مبذول)، فالليث حُمل، والسيف سُل، والبدر بُذل، وكلها أفعال قد وقعت على المفعول عنوة، فأمر الصلب كله عنوة، إضافة لما أحدثته من رنات موسيقية متكررة في نهاية كل بيت.

فقد دخل علي بن الجهم السجن "متعاليًا على النكبة، مستخفًا بالنازلة، معتدًا بالذات، حريصًا أشد الحرص على ألا يشمت أعداؤه به، وألا يقر عيون حساده بضعفه، فلم ينظر إلى الحادثة إلا كما ينظر الطود الشامخ إلى الأمواج العاتية التي تصدم سفحه، فهو لا يرى فيها إلا دفقات من الماء جاءت لتغسل قدميه، ثم لا تلبث أن ترتد عنهما خاسئة ذليلة".[2]

---

(١) المصدر السابق – ص ١٧٢– ١٧٣.

(٢) عبد الرحمن رأفت الباشا – علي بن الجهم حياته وشعره– مطبعة شركة التمدن الصناعية – القاهرة – ١٩٦٥م – ص ١٨٣.

ومن الناحية النفسية فإن سلب حرية الإنسان من أقسى مايعانيه؛ فيغير مجرى حياته بأكملها، ويَحول بينه وبين مجتمعه؛ فيثير لديه مشاعر وانفعالات سلبية، وتتدارك النفس هذا الوضع الجديد وتحاول أن تصل لمرحلة من الاستقرار النسبي، في محاولة لإنهاء حالة القلق المسيطرة عليها، ويبدأ الإنسان في مقارنة حاله قبل السجن وبعده؛ فيفضل حياة السجن، ويعدد مزاياها، في محاولة للوصول إلى الاستقرار النفسي، وكأنما يهدف بتضليل نفسه بهذه الطريقة أن يعيش في وهم الاستقرار. يقول علي بن الجهم في آخر قصيدة نظمها في سجنه:

إن كانَ لي ذَنْبٌ فلي حُرْمَة والحَقُّ لا يَدْفَعُهُ الباطِـــلُ

ولي حقوقٌ غيرُ مجهولـــةٍ يَعْرِفُها العاقِلُ والجاهِـــلُ

وكُلُّ إنسانٍ له مـــــــذهبٌ وأَهْلُ ما يَفْعَلُهُ الفاعِـــلُ(١)

لقد انتقل الشاعر في تجربة السجن إلى المرحلة الأخيرة، وهي التي ينتقل فيها من أسلوب الاستعلاء على الأعداء، والتقليل من شأنهم إلى أسلوب جديد يتسم بالهدوء والعقلانية، فينظم قصيدته الأخيرة نظمًا هادئًا عقلانيًا، لا يرتكز فيه على الجوانب الفنية قدر ارتكازه على الجوانب العقلية المنطقية؛ علَّها تكون سببًا في خلاصه من سجنه.

جـ – تجربة ما بعد السجن:

وتتحقق أمنية علي بن الجهم، ويصدر القرار بالإفراج عنه، ويعود مجددًا ليرى النور، لكن سرعان ما ينقلب النور إلى نار، وتصبح أمنيته وجعًا يكابده أكثر مما كابده في سجنه.

قد كانت نبرة الأمل الممزوجة بالاستعلاء عن المصائب هي نبرته المعهوده في شعره وهو في السجن، فقد كان في خضم محنته يدعو للبعد عن

(١) علي بن الجهم – الديوان – ص١٦٩.

اليأس والتحلي بالصبر، وإذ به يخرج من السجن لتنقلب حياته رأسًا على عقب، وتنتقل تجربة علي بن الجهم الحياتية إلى مرحلة جديدة غير معهودة، فبعد خروجه من سجنه رأى انصراف الناس عنه، وجفاء أصحابه له، بالإضافة لتجافي الخليفة (المتوكل) عنه؛ فأخذ ينظر إلى الحياة نظرة سوداء قاتمة، تحمل من اليأس ما تحمل؛ فجاءت أشعاره مشبعة بالصدق الإنساني. يقول بعد خروجه من سجنه:

يشتاقُ كُلُّ غريبٍ عند غُربتِهِ ويذْكُرُ الأهْلَ والجِيرانَ والوَطَنا

وليس لي وطنٌ أمْسيْتُ أذْكُرُهُ إلا المقابرَ إذْ صارتْ لهمْ وَطَنا[1]

ولمناسبة البيتين السابقين؛ يذكر الأصفهاني[2] أن رجلًا من أهل خراسان رأى علي بن الجهم بعد ما أُطلِق من حبسه جالساً في المقابر، فقال له: "ويحك! ما يجلسك هنا؟"، فأنشد البيتين السابقين.

وكأن الحياة خارج السجن باتساعها ضيقة في عين علي بن الجهم، فلا يجد له فيها وطن يعيش فيه سوى المقابر. وقد ساءت أحوال الشاعر بعد خروجه من سجنه، فانقلب عليه أصحابه وتركوه، فغدا وحيدًا لا يجد من يسانده، ويتألم لإنكار الخليفة (المتوكل) له بعد ما كان نديمه وصديقه المقرب.

ومن الناحية النفسية فمن المؤكد أن الوطن من أحب الأماكن إلى قلب الإنسان، فإن تركه ورحل عنه يشعر بغربته، وعلي بن الجهم ينتمي إلى (خراسان) – كما ذكر ذلك في أشعاره السابقة – وتحديدًا إلى (الشاذياخ)، ومن هنا تأتي المفارقة، فهذا الوطن هو نفسه المكان الذي سُجن فيه وصُلب وعُلق فيه عاريًا أمام الناس في واقعة صلبه؛ فإذ بالوطن يصبح مكانًا للتعذيب والهوان بدلًا من أن يكون مكانًا للعزة والنصرة، فتنقلب الأمور وتضيق نفس

(١) علي بن الجهم – الديوان – ١٨٤.

(٢) انظر أبو فرج الأصفهاني – الأغاني – ج١٠– ص ٢٢٤.

الشاعر من وطنه، فلم يعد مكانًا مناسبًا للعيش فيه؛ فينفر الشاعر من وطنه، ويشعر بغربته وهو في حضن وطنه، ويتمنى ملجأً آخرًا فلا يجد سوى المقابر وطنًا له، متمنيًا الخلاص من الحياة كلها، فارًا إلى الموت.

لقد عانى علي بن الجهم من غربة مزدوجة تمثلت في شعوره بالوحدة داخل السجن، وكذلك خيانة وغدر الأصحاب، وقد عبَّر عنها في مرارة شعره. إن المشاعر التي كانت تسيطر على الشاعر في سجنه دفعت به إلى الابتعاد عن الناس، وهذا ما جعله يشعر بالغربة النفسية، إضافة إلى الغربة المكانية. وهو القائل عن غدر الإخوان له:

أَلَمْ تَرَ مُظهِرِينَ عليَّ غِشًّا وهم بالأمسِ إخوانُ الصَّفاءِ

بُليتُ بنكبَةٍ فَغَدوا وراحوا عليَّ أشَدَّ أسبـــابِ البلاءِ(١)

فقد كانوا بالأمس إخوانًا له، فلما حلّت به النكبة، وأخذ يطلب منهم المساعدة، لم يلق منهم إلا الغدر والخيانة، فلا يجد أخًا يواسيه، ولا صديقًا يشكو إليه أحزانه، فقد تخلى عنه الأقربون، وغدر به الأصدقاء. إن إحساس الشاعر بالوحدة هو شكل من أشكال الاغتراب الذي يعاني منه الشاعر، ويشعره بفقدان قيمة الحياة.

ويملأ الأسى قلبه في وحدته، فيبث شكواه في قصيدته الميمية، ويفرد فيها عشرة أبيات كاملة لوصف الشيب، فيقول:

هل الشيب إلا حِلْيَة مُستَعـارَةٌ ومُنْذِرُ جيش جاءنا مُتَقدِّمـــا

فها أنا منهُ حـــــاسِرٌ مُتَعَمِّمٌ ولم أرَ مثلي حاسرًا مُتَعَمِّمـــا

(١) علي بن الجهم – الديوان – ص ٨٣.

كأنَّ مَكَانَ التَّاجِ سِلْكًا* مفصَّلا بنورِ الخُزامى أو جُماناً مُنَظّما

وَضِيءٌ كنصلِ السيفِ إنْ رَثَّ غِمْدُهُ إذ كانَ مصقُولَ الغِرارَينِ[1] مِخْذَما[2][3]

يُشَبِّهُ علي بن الجهم الشيب الذي ألمَّ برأسه بالشخص الحاسر (من لا غطاء على رأسه) والمتعمم في آن واحد، فقد اختلط البياض بالسواد، وإن كان الشيب حلية يتزين بها المرء، إلا أنه في الوقت نفسه منذر له ببدء الهرم والضعف وزوال قوته. فيقول:

خُذا عظة من أحوذِيَّ[4] تَقَلَّبَـــتْ بِهِ دُوَلُ الأيَّامِ بُؤْسًا وَأنْعُما

ومن طلبَ المعروفَ من غيرِ أهلِهِ أطال عناءً أو أطال تَنَدُّما[5]

لقد كانت تجربة السجن شديدة على نفس الشاعر؛ فقلبت كيانه، وجعلته يُعيد النظر في أمور كثيرة، ويستحضر تجارب السنوات الطويلة السابقة، فإذا به يصبح ذا خبرة ودراية بأمور الحياة، فيبث حكمته في أشعاره، واضعًا خلاصة آرائه، ناطقًا بالحكمة من نفس مجربة، معبرًا عن ألمه لتجافي الخليفة (المتوكل) عنه، ولكنه رغم إبعاده له مازال يحبه ويحب بني العباس، يقول:

أما وَأميرِ المؤمنينَ لقد رَمى الـ عدوَّ فلا نِكْسًا ولا مُتَهَضِّمـــا

ولا ناسياً ما كان من حُسْن رأيِهِ لِخُطّة خَسْفٍ سامَنِيها مُحَتِّمـــا

---

* هكذا وردت لفظة (سلكًا) في الديوان بالنصب، وكان الأولى أن تكون (سلكٌ) بالضم حسب قواعد الإعراب .

(١) الغِرار: حد السيف.

(٢) المخذَم : القاطع من السيوف.

(٣) علي بن الجهم – الديوان – ص١٩.

(٤) الأحوذي: الحاذق المشمِّر للأمور القاهر لها، لا يشذ عليه شيء.

(٥) علي بن الجهم – الديوان – ص٢٠.

عُلوقًا بأسْبابِ النبي وإنّمـــــا يُحِبُّ بني العباسِ من كان مُسْلِما

لَعَلَّ بني العبَّاسِ يأسو كلومهم فَيَجْبرَ مني هاشم[١] ما تَهَشَّمـــــا[٢]

ولكن كل تلك الآمال التي تمناها علي بن الجهم من عودة علاقته بالخليفة لم تلق قبولًا عند الخليفة، ولم تعد الأيام بينهما كسابق عهدها، فيتخبط علي بن الجهم، وتتجه أيام حياته اتجاهًا جديدًا متخبطًا أيضًا، فيترك طريقه ويسلك طريقا مغايرًا في كبره، فيسلك طريق اللهو، ويغشى دور القيان، يقول (أبو الفرج) عنه في تلك المرحلة الحياتية الطارئة: "كان علي بن الجهم يعاشر جماعة من فتيان بغداد لما أُطلق من حبسه، ورُدَّ من النفي، وكانوا يتقاينون ببغداد، وينزلون منزل مقين بـ (الكرخ)، يقال له (المفضل)."[٣] . يقول علي بن الجهم:

نَزَلْنا ببابِ الكَرْخِ[٤] أفْضَلَ مَنْزِلِ على مُحْسِناتٍ مِنْ قِيانِ[٥] المُفَضَّلِ

فلابن سُرَيْج والغَريضِ وَ مَعْبَد[٦] وَدائِعُ في آذاننا لم تُبَـــــدَّلِ

أَوانِسُ ما فيهنَّ للضَّيْفِ حِشْمَة ولا رَبُّهُنَّ بالمـــهيبِ المُبَجَّلِ[٧]

إنها نزعة غريبة على شاعرنا، الذي كان يتصف بالتدين، وكثيرًا ما ظهر ذلك في أشعاره من دعوته للصبر، وعدم اليأس، والتوكل على الله في كل

---

(١) هاشم: يقصد هاشم بني عبد مناف جد النبي محمد – ﷺ- .

(٢) علي بن الجهم – الديوان – ص٢١.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني – الأغاني – ج١٠– ص ٢١٩.

(٤) الكرخ محلة مشهورة من محالّ بغداد – هامش الديوان – ص٥٢.

(٥) القِيان: جمع قَيْنة وهي الأمة المغنية، وقيل الأمة مغنية كانت أوغير مغنية.

(٦) ابن سُرَيج والغَرِيض ومَعبَد من أشهر المغنين في العصر الأموي، وأخبارهم كثيرة في الأغاني.

(٧) علي بن الجهم – الديوان – ص ٥٢.

الأمور، أما هذه الحال التي آل إليها بعد نكبته، فقد كانت تجربة جديدة عليه حتى إنه لم يعهدها في شبابه؛ ولعلها استجابة نفسية لما عاناه من قلق نفسي شديد في محبسه، وفي حياته منفردًا بعد خروجه من السجن، فتجمعت كل هذه العوامل لتُردي به إلى هذه المرحلة، والتي صار فيها العيش عنده ليس سوى اللذة والمتعة؛ التي يقتنصها ويظفر بها من دور القيان ومجالس الغناء، يقول:

سقى الله بابَ الكَرْخِ من مُتَنَزَّهٍ إلى قَصْرِ وَضَّاحِ[١] فبِرْكَةِ زَلْزَلِ[٢]

مَسَاحِبُ أَذيال القِيانِ ومَسْرَحُ الـ ـحِسانِ ومَأوى كلِّ خِرْقٍ[٣] مُعَذَّلِ[٤]

مَنازِلُ لا يُسْتتبعُ الغيث أهلهـــا ولا أوجه اللذاتِ عنها بمَـعْزِلِ

مَنازِلُ لو أنَّ امرأ القيسِ حَلّهـــا لأقْصَرَ عن ذِكْرِ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ[٥]

فالشاعر يصور مغامرة مع فتيان بغداد والقيان والشراب، ويصف متنزه الكرخ، مشيرًا إلى قصر (المهدي) الذي بناه رجل من الأنبار يقال له (وضاح)، واصفًا بركة (زلزل)، ثم يصف منازل القيان مُفضلًا إياها عن منازل (امرئ القيس) وما فيها من مغامرات.

---

(١) قصر وضاح: قصر بني للمهدي قرب رصافة بغداد، وقد تولى النفقة عليه رجل من أهل الأنبار يقال له (وضاح) فنُسب إليه – الأغاني ج١٠– ص ٢٢٠.

(٢) بركة زلزل ببغداد بين الكرخ والسَّراة وباب المحوّل وسويقة أبي الورد، حفرها (زلزل) ووقفها على المسلمين؛ فنسبت إليه. و(زلزل) كان في أيام المهدي والهادي والرشيد يضرب المثل بحسن ضربه على العود، ويعرف بزلزل الضارب – انظر هامش الديوان – ص٥٥.

(٣) الخرق من الرجال: الكريم الذي يتخرق في كرمه، أي يتسع فيه .

(٤) المعذل: الذي يكثر الناس عذله ولومه على إسرافه وكرمه.

(٥) علي بن الجهم – الديوان – ص ٥٥.

وتظهر براعة الشاعر في انتقاء ألفاظه المعبرة عن صدق وجدانه، وانفعالاته التي تنقل تجربته الفنية بأسلوب فني مؤثر. ولقد شكَّل الامتزاج الثقافي الذي شهده العصر العباسي أثره على الشاعر، فصور الحضارة التي شهدتها بغداد، مبرزًا تأثير الحضارة الفارسية على الشعراء العباسيين، وما ظهر في المجتمع العربي من تغيرات؛ مثل دور القيان والمغنين ومجالس الشراب، ثم يختتم قصيدته بقوله:

إذا الليلُ أَدْنى مَضْجَعي منه لم يَقُلْ (عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزلِ)[1]

لقد تمكَّن الشاعر من المزج بين الحضارة العربية والفارسية في قصيدته، فكما ظهر تأثره بالثقافة الفارسية في المقطع السابق، كذلك تظهر الثقافة العربية والتراث الشعري العربي في ذكره لامرئ القيس في الأبيات السابقة، وتضمينه لشطرٍ من معلقته المشهورة، والتي يقول فيها:

تقولُ وقد مال الغَبيطُ بِنا معا عَقَرْتَ بعيري يا امرأ القيسِ فانزلِ

وقد تحققت الوحدة الموضوعية في القصيدة السابقة لعلي بن الجهم، إذ تدور كلها حول موضوع واحد، فقد بدأ بالنزول بالكرخ، ثم وصف ليلتهم مع فتيان (بغداد) والقيان، وسرد القصص التي تصف تلك الليلة، ثم ذكر أوصاف القيان والمنازل.

وتُعبِّر هذه النغمة الدخيلة على أشعار علي بن الجهم عن موقف شعوري أو حالة نفسية تتملكه، فالحالات النفسية المتغيرة هي المادة الأولى لمعجم الشاعر، فالشاعر يعبر بشعره عن وجدانه؛ لذا تعد الصورة النفسية من أهم أنواع الصور دلالة على عمق التجربة الذاتية للشاعر.

فلم يبق علي بن الجهم على هذه الوتيرة الضالة كثيرًا، بل كان يأخذ نفسه بالتفكير فيما مضى من حياته، متذكرًا فقد الأصحاب والأحباب، وكذلك إبعاد الخليفة (المتوكل) له، مسترجعًا أمجاده السابقة، وما كانت عليه حياته في

(١) علي بن الجهم – الديوان – ص ٥٦.

سابق عهدها قبل حبسه، فيلوم نفسه ويصرخ صرخات ملأها الاستكبار والتعالي على وضعه الراهن، يقول:

أَقِلّي فإنَّ اللّومَ أَشْكَلَ واضِحُــه وكَمْ مِنْ نَصِيحٍ لاتُمَلُّ نَصائِحُه

علامَ قَعَدْتِ القُرْفُصى تَغْذَلينَنــي كَأَنّي جان كُلَّ ذَنْب وجارِحُــه

أَضاقَتْ عليَّ الارضُ أم لستُ واثِقًا بِحَزْمٍ تُغادِيه القَنا وتراوِحُــه[1]

ولعلَّهُ يُخاطب نفسه التي تلومه على ما اقترف بحق نفسه، ويطلب منها أن تكف عن اللوم، فالأرض لم تضق به، فمازال رغم ما فيه يملك زمام الأمور، فعنده نافذة يبصر منها ضوء الأمل، ألا وهي الصبر، و يفتخر بقيمه العربية الأصيلة، فيقول في نفس القصيدة:

سأَصْبِرُ حتى يعلمَ الصَّبْرُ أنني أخوهُ الضي تُطْوى عليهِ جوانِحُهْ

ومن هِمَمِ الفِتْيانِ تَفريجُ كُرْبَةٍ وإطلاقُ عانٍ باتَ والبُؤسُ فادِحُهْ

وضَيْفٍ تَخَطى الليلَ يسألُ مَنْ فَتى يُضِيفُ فَدَلّتْهُ عليهِ نَوابِحُــهْ[2]

ويترك علي بن الجهم (بغداد) وأحياءها وكل ذكرياته التي حملتها نفسه لهذا البلد؛ لينضم إلى المتطوعة الخارجين إلى الثغور[3]، رغم كبر سنه، يقول في ذلك:

كَمْ قد تَجَهَّمَنِي[4] السُّرى[5] وأزالَني لَيْلٌ يَنُوءُ بِصَدْرِهِ مُتَطــاوِلُ

---

(١) علي بن الجهم – الديوان – ص ٦٤.

(٢) المصدر السابق– ص ٦٥.

(٣) انظر الخطيب البغدادي – تاريخ بغداد– ج١١– ص ٣٦٨.– وابن خلكان – وفيات الأعيان – ج٣– ص ٣٥٦.– ابن الجوزي – المنتظم في تاريخ الملوك والأمم – ج١٢– ص ٢٨.

(٤) تجهَّمَه: استقبله بوجه كريه.

(٥) السُّرى: سيرعامة الليل.

وَهَزَزْتُ أَعْناقَ المطِيِّ أَسُومُهـا قَصْداً ويَحْجُبُها السَّوادُ الشَّامِلُ

حتى تَوَلى الليلُ ثانِيَ عِطْفِـــــهِ وكَأَنَّ آخِرَهُ خِضابٌ ناصِـــــــلُ

وَحَمَيْتُ أَصحابي الكَرى وكَأَنّهم فوقَ القِلاصِ[١] اليَعْمَلاتِ[٢] أَجادِلُ[٣][٤]

وينتقل علي بن الجهم إلى مرحلة جديدة وأخيرة في حياته. يصور رحلته إلى الثغور التي كانت في ظلمة الليل، فقد تجهمه السرى، وأخفاه الليل المتطاول، فقد كان راكبًا مطى هزَّ أعناقها سوقًا لها، ويغشيها سواد شامل، ويظل الشاعر هو وأصحابه فوق القلاص (النوق الفتية) واليعملات (النوق النجيبة).

وتظهر براعة الشاعر في حشد العديد من الصور المتداخلة في أبياته، واستخدام الأفعال التي تبث الحركة في صوره، وتُظهر حركة الصورة، مثل: (هززت – يهتز – ينوء – يحجبها).

وفي سنة (٢٤٩) خرجت على علي بن الجهم وعلى جماعة كانت معه خيل من بني كلب؛ فهرب من كان معه، وثبت هو؛ فقاتلهم قتالًا شديدًا، حتى جُرح، وأحس بالموت [٥]. وكان آخر شعر هو قائله:

أَزِيدَ في الليْلِ لَيْلُ أَمْ سالَ بالصُّبحِ سَيْلُ؟

(١) القِلاص: جمع قَلوص، وهي الشابة من الإبل.

(٢) اليَعمَلات: جمع يَعمَلَة، وهي الناقة النجيبة.

(٣) الأجادِل: جمع أجدل، وهو الصقر.

(٤) علي بن الجهم – الديوان – ص ١٦٨.

(٥) انظر الأصفهاني – الأغاني – ج١٠– ص٢٣٣.

يا إخْوَتي بدُجَيْل[١] وأينَ مِنِّي دُجَيْلُ؟[٢]

فأبكى من كان بالقافلة، ودُفن في ذلك المنزل على مرحلة من حلب، وحينما نُزعت منه ثيابه، وُجد معه رقعة مكتوب عليها[٣]:

وَارَحْمَتَا لِلْغرِيبِ في الْبَلَدِ النّـ ـازِحِ ماذا بِنَفْسِهِ صَنَعـا؟

فَارقَ أَحْبابَهُ فَما انْتَفَعُـوا بِالْعَيشِ مِنْ بَعْدِهِ ولا انْتَفَعا
يقولُ في نَأْيِهِ وَغُرْبتِـهِ عَدْلٌ مِنَ اللهِ كُلُّ ما صَنَعا[٤]

(١) دجيل: نهر مخرجه من أعلى بغداد مقابل القادسية دون سامرا – انظر الأغاني – ج١٠– ص ٢٣٤.

(٢) علي بن الجهم – الديوان – ص١٧٠.

(٣) انظر تاريخ الأمم والملوك– لأبي جعفر الطبري– دار الفكر للطباعة والنشر– بيروت – لبنان – ج١١– ص ٨٦–٨٧. وانظر– مروج الذهب ومعادن الجوهر– لأبي الحسن المسعودي – تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد– ط٥– (١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م)– دار الفكر بيروت – لبنان– المجلد ٤– ص١١. وانظر الأغاني– لأبي الفرج الأصفهاني– ج١٠– ص ٢٣٤.

(٤) علي بن الجهم – الديوان – ص ١٥٤.

نتائج البحث:

– علي بن الجهم شاعر فذ ظُلم في حياته، وكذلك بعد وفاته؛ أما في حياته فقد حبسه المتوكل، وعذبه؛ بسبب وشاية الأعداء به، وظُلم بعد وفاته، فلم ينل حظًا واسعًا من الشهرة مثل شعراء عصره، رُغم براعة شعره، ومكانته العالية عند النقاد القدامى.

– تجربة سجن علي بن الجهم رغم كونها تجربة سجن واحدة عند نفس الشاعر إلا أنها انقسمت عنده إلى عدة مراحل، فالاختلاف واضح بين الأشعار التي نظمها في فترة حبسه الأولى في سجن (بغداد)، عن تلك التي نظمها في فترة سجنه الثاني في سجن(خراسان).

– ترسم قصائد علي بن الجهم خطًا بيانيًا واضحًا لنفسيته منذ بداية دخوله السجن وحتى وفاته. فقد بدأ أشعاره بالشكوى والاستعطاف، ثم انتقل بأشعاره إلى المرحلة التالية بعدما رأى شماتة الشامتين به، فأخذت أشعاره تحمل كل معاني القوة والاستعلاء، فقد تعمد كتم آلامه وأظهر رضاه كاسرًا بذلك ظهر الحاقدين.

– ظهر اختلاف واضح بين كم الأشعار التي أنشدها علي بن الجهم في المحبسين، رُغم تقارب الفترتين زمنيًا. فقد نظم الشاعر اثنتي عشرة قصيدة خلال فترتي سجنه، منها عشر قصائد خلال سجنه الأول، واثنتين فقط خلال سجنه الثاني.

– تتميز لغة علي بن الجهم في تجربة سجنه الأولى بالعذوبة، واللين، والرقة. وقد وردت عنه أشعار تحمل عتابًا لطيفًا، بل ومدحًا أيضًا في أغلب الأحيان.

– قلَّت الصور الفنية في أشعار علي بن الجهم في تجربة سجنه الأولى، فقد كان هم الشاعر بث معاناته، والتعبير عن أحزانه، فمثلت أشعاره مقدار القلق والتوتر الذي كان يعانيه.

– تتميز لغة الشاعر في تجربة سجنه الثانية بالقوة والاستعلاء، وتكاد تخلو من الاستعطاف والشكوى، فقد وردت ألفاظه موحية بالقوة وعزة النفس.

– تعد أشعار علي بن الجهم في تجربة سجنه الثانية بمثابة استعلاء على النكبة، فصدرت أشعاره من نفس ملأتها العزة ورفض المهانة، فكانت أشعاره في تلك الفترة أكثر هدوءًا وعقلانية، تميل إلى الجانب العقلي المنطقي.

– نجح علي بن الجهم في قلب الأمور خلال تجربة سجنه الثانية، فجعل من محنة السجن وسيلة لإبراز كبريائه وعزة نفسه، فامتزجت معاناته بصلابة نفسه؛ فأنشد أشعارًا تحمل معاني الاستعلاء والشموخ.

– اختلفت أشعار علي بن الجهم بعد خروجه من السجن عما كانت عليه في المرحلتين السابقتين، فقد تباينت أشعاره؛ مابين أشعار يغلب عليها اليأس والسوداوية، وقد تميزت بالألفاظ الموحية والصدق الفني، وأشعار اللهو والمجون، وقد أكثر فيها من الوصف، ثم أشعار الثغور ونهاية المطاف، وقد تميزت ببراعة التصوير وحسن توظيف اللغة ودلالتها، إضافة إلى فخامة الألفاظ وجزالتها.

– مثَّلت أشعار علي بن الجهم ما عاناه من تقلبات حياتية، فقد شهد معجمه اللغوي العديد من التناقضات، فكما تأثر بالقرآن، والأحاديث، وافتخر بإسلامه وسنيته، كذلك شهد معجمه ذكر دور القيان، ومجالس الشرب، والمغنين، وكذلك حملت أشعاره تناقضات كبيرة بين اليأس والأمل.

– منحت تجربةُ السجن علي بن الجهم طاقة ذهنية وفكرية متوهجة، فعكست أشعاره تجربة صادقة عبرت عن صدق الأحاسيس والمشاعر، كذلك اتسمت لغته بالبساطة، والوضوح، والبعد عن التقليد؛ فمثَّل شعره تجربة شعرية صادقة.

المصادر والمراجع :

١- الأغاني – أبو الفرج الأصفهاني – تحقيق علي محمد البجاوي- عبد الكريم إبراهيم العزباوي – محمود محمد غنيم – إشراف محمد أبو الفضل إبراهيم – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ١٩٩٣م.

٢- أخبار أبي تمام – الصولي – تحقيق خليل عساكر- المكتب التجاري – بيروت – د.ت.

٣- الأعلام – خير الدين الزركلي – دار العلم للملايين – بيروت – ٢٠٠٥م – ج٦.

٤- بنية الخطاب في الرواية النسائية الفلسطينية – حفيظة أحمد – دراسة نقدية – منشورات الرعاة للدراسات والنشر- فلسطين – ٢٠٠٧م.

٥- بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي صلاح الدين المنجد – دار الحياة – بيروت – ١٩٧٥م.

٦- تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني – د/ شوقي ضيف – دار المعارف – ط١٦- ٢٠١٥م.

٧- تاريخ مدينة السلام بغداد- الخطيب البغدادي – تحقيق وضبط وتعليق د/ بشار عواد معروف – دار الغرب الإسلامي – ط١- ٢٠٠١م.

٨- التشيع وأثره في الشعر العباسي الأول – د/ محسن غياض- مطبعة النعمان – العراق – نجف الأشراف – ١٩٧٣م.

٩- التفسير النفسي للأدب – د/ عز الدين إسماعيل- مكتبة غريب – القاهرة – ط٤.

١٠- التيار الإسلامي في الشعر العباسي الأول – د/ مجاهد مصطفى بهجت – جامعة بغداد – وزارة الأوقاف .

١١- الحياة الأدبية في العصر العباسي – د/ محمد عبد المنعم خفاجي – دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر – الإسكندرية – مصر – ط١- ٢٠٠٤م.

١٢- دراسات في علم النفس الاجتماعي التربوي على الأطفال والراشدين- سماح خالد زهران- دار الفكر العربي- القاهرة- ط١- ٢٠٠٢م.

١٣- ديوان علي بن الجهم – تحقيق خليل مردم بك – المطبعة الهاشمية بدمشق -١٩٤٩م.

١٤- الرأي العام في القرن الثالث الهجري – عادل محيى الدين الألوسي – وزارة الثقافة والإعلام – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد – ١٩٨٧م.

١٥- سير أعلام النبلاء – شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي- تحقيق شعيب الأرنؤوط – مؤسسة الرسالة – ١٩٩٦م -١٤١٧هـ – ط١١ – جـ١٢.

١٦- الشعر والشعراء في العصر العباسي – مصطفى الشكعة – دار العلم للملايين – بيروت – لبنان – ط٤- ١٩٧٣م.

١٧- شعرنا القديم والنقد الجديد – سلسلة عالم المعرفة ٢٠٧- د/ وهب أحمد رومية – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت -١٩٩٦م.

١٨- الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث- د/ محمد الكتاني- ج١-ط١- ١٩٨٢م.

١٩- الصراع النفسي – الدكتور أبو مدين الشافعي- مطبعة لجنة البيان العربي – القاهرة – ١٩٥٠م -١٣٧٠هـ.

٢٠- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي – جابر عصفور – دار المعارف – القاهرة – ١٩٨٠م.

٢١- طبقات الحنابلة – القاضي أبو يعلي- مراجعة محمد الفقي – مطبعة السنة المحمدية – القاهرة – ١٩٥٢م.
٢٢- طبقات الشعراء – ابن المعتز- تحقيق عبد الستار أحمد فراج – دار المعارف – مصر.
٢٣- علي بن الجهم حياته وشعره- عبد الرحمن رأفت الباشا – مطبعة شركة التمدن الصناعية – القاهرة – ١٩٦٥م.
٢٤- الغربة في الشعر الجاهلي- عبد الرزاق الخشروم – اتحاد الكتاب العرب – ط١- دمشق ١٩٨٢م.
٢٥- الفرق بين الفرق – عبد القاهر البغدادي – تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد – مكتبة محمد علي صبيح وأولاده – مصر.
٢٦- القاموس المحيط – الفيروز آبادي – تحقيق محمد عبد الغني حسن – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ١٩٩٤م.
٢٧- لسان العرب – ابن منظور – تحقيق عبد الله على الكبير وآخرين- دار المعارف – القاهرة.
٢٨- معجم البلدان – ياقوت الحموي – ج٣/١ – دار صادر – بيروت – ١٩٧٧م.
٢٩- معجم الشعراء – المرزباني – تحقيق د/ فاروق اسليم- دار صادر – بيروت – ٢٠٠٥م.
٣٠- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام – د/ جواد علي – المجمع العلمي العراقي.
٣١- النجوم الزاهرة – الأتابكي – دار الكتب المصرية – القاهرة ـــ ج٢- ١٩٩٣م.

٣٢- الهوامل والشوامل – أبو حيان التوحيدي، وابن مسكويه- نشره أحمد أمين والسيد أحمد صقر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ٢٠٠٩م.

٣٣- وفيات الأعيان – ابن خلكان – تحقيق يوسف علي الطويل- دار الكتب العلمية – ١٩٩٨م.

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٩٥٩
علي بن الجهم	٩٦٠
تجربة السجن في شعر علي بن الجهم	٩٦٢
تجربة السجن الأولى في شعر علي بن الجهم	٩٦٣
تجربة السجن الثانية في شعر علي بن الجهم	٩٧٥
تجربة ما بعد السجن	٩٨٤
نتائج البحث	٩٩٤
المصادر والمراجع	٩٩٦
فهرس الموضوعات	١٠٠٠